

هناك.. عبد الرحمن المناعي



[حسن رشيد*]

«هناك»... في هذه المسرحية والتي تمثل آخر إبداعاته يرفع المناعي عصا التحدي، ويؤكد للجميع أن بمقدوره أن يخوض غمار كل التجارب الفنية... نعم بدأ مشواره الإبداعي عبر استحضار عوالم البحر بهومومه وأماله وأحلامه... بيأس الغاصة والقهر الاجتماعي... ولكنه لم يقف أمام شكل إبداعي مسرحي محدد... لجأ إلى القصيدة والحكاية، وغرف من معين إبداعات الآخرين، ولكن بروح خليجية... حملت صرخة النهام... وعطش البحار... وصرخة النوحه من أجل تكرار المحاولات... حمل رسائل إلى أفريقيا ومدن أخرى...

مجرد رقم بلا ملامح أو مميزات حتى وإن كان أحدهم مرتبطاً بالكتاب وسيرة جلجامش وانكيديو... كما أنه يطرح المسألة عبر صراخات طفل جائع والأم لا تملك أي وسيلة لإسكات صرخات الطفل لأن صدرها قد جف.

المرأة هنا رمز أكبر... إنها (الوطن المسلوب) التي لا تملك القدرة على فعل أي شيء سوى البكاء على طفل ولد ورحل عن هذه الدنيا... المرأة رمز أكبر من كيان أثوي... إنها شريان الحياة... ومن خلال بكاء الطفل واستجداء الأم يطرح المؤلف عبثية الموقف... أحدهم يبحث عن سيجارة وآخر قد قطع علاقته بكل شيء سوى الكتاب... الصراع هنا هاديء وساكن في واقع الأمر... ولكن هذا الصراع يؤجج بين الأفكار والأحلام... بين الفكر والثقافة من جهة والرغبات الفردية من جهة أخرى مع أن الموقف في إطاره العام (عبثي) إلا أن الأكثر لا معقولة هذا الحوار...

- رجل (1): الوقت يمر ولا شيء يوحى بالنهاية...
- رجل (2): والقراءة هي زادك على قتل الوقت!
- رجل (1): لولا بكاء ذاك الطفل الجائع...
- رجل (2): وهل صدقت ذلك؟

المناعي في هذا النص لا يضع حوار هباءً ومن ثم لم يختار هذا المضمون من فراغ... ذلك أن الواقع العربي إجمالاً مغلف بهذا الإطار من العبث واللامعقول عبر كل الحدود العربية... أما استحضار (جلجامش وانكيديو) واستحضار تلك الملحمة السومرية... فهو طرح آخر لمضمون الخلود الذي تبحث عنه الإنسانية... سواءً في الملاحم الهندية مثل المهاباراتا أو الرامايانا أو في الملاحم الإغريقية مثل الإلياذة والأوديسة... ذلك أن أحلام الإنسان لا تحدها حدود... وهنا يطرح المفكر رؤيته الخيالية ويعيده إلى واقع ملموس...

«هناك»... في هذا النص يلقي بفضاز التحدي... بمقدوره أن يخرج من إهاب الطرح الواقعي أو العزف على وتر القضايا الحياتية إلى طرح مضامين مختلفة ذات أبعاد شمولية.

هناك... في هذا النص يضعنا منذ اللحظة الأولى في حيرة... ذلك أن العنوان يحمل دلالات عدة من أهمها طرح مفردة أين؟ هناك؟ ظرف مكان والمكان مبني للمجهول حتى قبل النهاية عندما يكتشف القارئ أبعاد كلمة (هناك) ولكن هو لا يسرد حكاية (المكان) منذ البدايات الأولى ويذهب بالقارئ إلى أماكن جغرافية متعددة يعاني الإنسان فيها مرارة الحياة والقهر... تتعدد الأسئلة...

هل يستحضر المؤلف الحدود العراقية أو السورية، أم الحدود الفلسطينية الإسرائيلية أم العربية؟! ذلك أن كل الأماكن مرتبطة (بالمعنى) داخل وخارج الوطن!

هذا النص مختلف شكلاً ومضموناً عن كل الأطروحات والأفكار والمعالجات... بدءاً كما أسلفت بالعنوان (المبهم) وصولاً إلى المكان (الرمز) أما الزمان فهو الواقع المعاش... وفي إطار من الرمز الشفيف يستحضر شخوص العمل والتي لا تحتل أي أسماء سوى رجل (1)... رجل (2)... المرأة... ورجل (3)... وعابرون هذا الإطار الرمزي يمنح النص بعداً آخر... هذا بجانب عبثية الشخوص وهم يتبادلون (الحوار) المفعم بالإسقاطات... أما المكان فهو وإن اختار الصحراء فهو يحمل الكثير الكثير من الدلالات ونقطة عبور بين بلدين ومعاناة الإنسان وفي هذه الصحراء لا شيء مرتبط بالحياة سوى جذع شجرة ميتة وصخور وحقائب سفر...

هكذا يضعنا المؤلف منذ اللحظة الأولى في مشهدية قاتمة، ومن ثم يطلق صرخة الاحتجاج على لسان الشخوص التي لا تحمل أي أسماء سوى أرقام، وهذا أمر مقصود فنحن

قال إنه كافر...». بشاعة الموقف مغلف بجمالية الصورة في إطاره الواقعي... ولا أعتقد أن مؤلفاً آخر يطرح أو بمقدوره أن يطرح هذه الصورة... رفقاء الأمس يتقاتلون... وهذا جزء من لعبة (هناك) سواء في عراق الرشيد والمأمون أو دمشق معاوية أو القيروان أو بني غازي... ويؤكد قيمة البلاغة في حوار كليهما...

- رجل (1): «كلامك جميل وحارق».

شيئاً فشيئاً يأخذنا (بو إبراهيم) عبر تدفق حوارهِ إلى عوالمه في البدء يظن الفرد أنها مجرد ثرثرة... وموقف مبني على اللا معقول... ولكن لأن الهدف واضح وجلي لديه فهو ينتقل بالمتابع سواء كان قارئاً أو مشاهداً لهذا العمل من موضوع إلى آخر في سلاسة وعذوبة... بين خلود (جلجامش) وصراع البقاء والهروب خارج الوطن، أو الصراع من أجل الوصول إلى الوطن مع تجسيد عذاب الإنسان الباحث عن سيجارة تعيد له المزاج...

- رجل (2): لماذا تقرأ عنه إنه رجل كافر؟!

- رجل (1): ها أنت تكرر ما قاله قاتل أخيك...

- جل (2): لا أعرف من الذي قتل ومن الذي قُتل... من هو؟!

وعبر الثالث التي تشكل المشهدية المأسوية يبرز الصراع بين حاجة كل فرد منهم إلى الآخر مع اختلاف الأهواء والميول... صراع بين ثقافة رجل وحاجة آخر إلى (نفس من سيجارة) وأم تبحث عن لقمة تسد الرمق لطفلها الجائع... وأحلامها أن يشاهد الأهل خارج هذا الأسر القسري فلذة كبدها... إن موت الطفل في النهاية موت لأحلام جيل قد يكمل الرسالة... ولكن لا يمكن أن نطلب من المؤلف هذا الأمر... لأننا عندها نقدم موضوعاً آخر لا علاقة له بهذا النص المليء بالمشاعر الإنسانية وصراع الأفراد... حتى وإن كان هذا الصراع يبدو ساكناً

- رجل (2): وهل لذلك الواقف خلف الحاجز دين؟!
- رجل (1): (يعاود القراءة) هل القراءة مثل التدخين؟!

الحوار بين رجل (1) ورجل (2) يجسد عبثية الكون كلاهما يبحث عن الخلاص كما يقول رجل (2) والخلاص هو في الخروج من هذا القيد، حيث الأمن، والأمان، والسلام، والمال الوفير... ولأن رجل (1) ينتمي إلى قطاع الفكر والثقافة فلا بد وأن يتحدث بمقتضى الحال...

إن المناعي هنا قد منح كل واحد من شخصياته لغته الخاصة... ذلك أن العديد من المبدعين لا يطرحون شخصياتهم عبر حواراتهم بمقتضى الحال فتري حوار سائق التاكسي موازياً لحوار شاعر...

هنا المناعي يطرح رجل (1) بواقعه الثقافي والفكري... ويستحضر روح بدر شاكر السياب عبر المثقف...

مازلت أحسب يا نقود... أعدكن وأستزيد... مازلت أنقص، يا نقود... بكن من مدد اغترابي... مازلت أوقد بالتماعتكن نافذتي وبابي...

والمؤلف وإن كان يطرح إشكالية الحوار بين فرد يحاول الخروج من شرقة القهر والظلم ويحلم بالثراء خارج حدود الوطن... إلا أن الهروب له مبرره لكليهما... وهنا يطرح واقع الصراع بين الأشقاء... إنه إسقاط على واقع مأزوم لأخوة الكفاح... وهو وإن استحضر عبر الحوار ما حدث... فإن الضبابية تغلف الموقف (أين؟) خاصة وأن الحوار يشير أكثر من قضية غلفت واقع أخوة الدم والمصير عبر تشكيلات وانتماءات حزبية أو اختلاف في العقائد... كلاهما يغلف رجل (1) + (2) حواراه بالألغاز وإن كان المتلقي على وعي بماهية الحوار... يقول رجل (2) عن سبب سفره أو هروبه سيان... «قتله رفيقي في حرب تحرير الوطن... قال إنه كافر... قتله وهو خارج من المسجد...

في أن واحد.

- المرأة: لماذا نعتبر المكان الذي نولد فيه وطن ولا نعتبر المكان الذي نموت فيه وطن؟!
ويلاحظ الرجل (1) مدى سخرية المرأة من مرارة الموقف وعبر حوار مليء بالقسوة... تطرح المرأة تساؤلاتها المليئة بالسخرية عندما تقول: هل يسمحون بمرور الموتى؟!
جمالية الحوار ليس فقط في عبثية المشهدية ولكن في خلق ديالوج بين فكر مثقف وامرأة تطرح بين حين وآخر ذات السؤال: هل تعلمت هذا في المدرسة... ذلك أن مدرسة الحياة أعمق وأشمل وأكثر وعياً...
وكانما المناعي يستحضر روح أبي تمام في رائعته: «السيف أصدق أنباء من الكتب» ذلك أن المدرسة تعطي فك تلامس الحروف والكلمات والقراءة والكتابة... ولكن لا تقدم دروساً في الحياة!
وترفض المرأة المغادرة... ما الفائدة من الرحيل فالجدة لا ترى حفيدها ولن تلاعبه أو تناغيه...
ويكتمل المشهد... بعدم مغادرة أرض الوطن مهما كانت الأسباب والمسببات... الوطن هنا مبني للمجهول... ذلك أن المؤلف وهو يطرح المشهد في نقطة عبور مغلف بالرمز... هل هذه النقطة (رفح) أم أي مكان آخر؟!
الأجمل من كل هذا طرح المعاناة... والمرارة ومن ثم هذا الكم من السخرية عبر حوار متدفق على لسان الشخصيات.

- رجل (1): لا... مات جوعاً... هل تساعدنا في دفنه؟
- رجل (3): تدفونونه هنا... بعيداً عن وطنه؟
- المرأة: سيكون هنا وطنه.

وينتهي المؤلف هذا المشهد الحزين بالسير عكس الحاجز النوخذا بو إبراهيم... شمر هذا المسرحي العربي الكبير عن ساعد الجد، فهاهو قد رقد المسرح في الآونة الأخيرة

وهادئاً للوهلة الأولى... ومع هذا فالحوار الساخر بين الثلاثة يحمل الكثير من الدلالات والرموز وتعري الواقع...
- رجل (1): «لك الله يا أختي... في هذا الحاجز تتبدل أشياء... تذهب أشياء... وتأتي أخرى... قالوا له انتظر... وقالوا لك أصبر... أتعرفين أن جدي وجدك كانوا يجوبون هذه الصحراء بدون حواجز دون أوراق ودون خوف... يرحلون حيث يشاءون».

- الرجل (1) يسرد عليها ما كان... ولكن المرأة تعي وتذكر كل شيء بأن الماضي قد ولى... وهنا تلقي بالكرة في ملعبه... عبر سؤال استفزازي استفزازي...
- «عرفت هذا في الكتب»؟!
هذا الماضي لا يجدي مع عبثية الحياة في الواقع الجديد... وكلاهما في انتظار المخلص الذي لا يأتي... فالطفل الذي مات جوعاً لن يعود إلى الحياة... والأبواب لن تفتح... وهنا يكتشف الرجل (2) أن الكتاب بكل ما فيه لن يضيف إليه موقفاً مغايراً حتى وإن استحضر روح جلجامش الباحث عن (الخلود!) ذلك كما يقول المناعي: إنها حكاية...
والحكاية نصفها أحلام ونصفها أمانى...

يقترّب المؤلف في هذا المشهد من تجسيد مأساة أبناء الأرض المحتلة والتكدس عبر بوابات العبور ولكن كل الصرخات تذهب هباءً... ويخاطب الرجل (1) المرأة وهي تحتفظ بجثة الطفل: إلى متى تحتفظين به؟!
فترد المرأة: حتى نجد وطن!...

هذا الوطن المفقود... والذي يحاول الكل الهروب منه ولكن الانقلاب هنا يحدث عندما يعود الرجل (2) إلى مبتغاه... ولا يريد مغادرة الوطن حتى وإن فتحوا كل الأبواب... فالبقاء في الوطن مع القهر والظلم والمرارة أهون بكثير من الاغتراب... في هذا النص أعطى المناعي بُعداً آخر للمرأة في حواراتها... بُعداً في المرارة والسخرية

التي خلقت تمازجاً مع فترة طويلة من عمر الزمن ومن
عمر إنسان هذه المنطقة، وعرى عبر أطروحاته العديد
من القضايا التي لامست الإنسان بهوممه وأحلامه...
وشكلت تلك الاطروحات جزءاً من حياة الإنسان البسيط
القانع... عبد الرحمن المناعي في كل الأطروحات مهموم
بالإنسان في أي مكان ومدافع عن قضايا الفرد لأنه ينتمي
إلى الإنسانية. ■

بأكثر من عمل مثل (المرزام، هناك) وكلا العاملين شكلا
نقطة نوعية في مسار الأطروحات المحلية.
بو إبراهيم يملك عيناً راصدة وهو لا يخوض في التجريبتين
عوالم البحر أو يستحضر عوالم الغاصة والدول وأسماك
القرش وقسوة النوحه... لا يستحضر مآسي الماضي
وإن كان الاستحضر في كل نص له ما يبرره من إسقاط
على واقع معاش، نعم ارتبط هذا المبدع بالمضامين

